



الدكتاتورية، كارثة تصيب الأفراد والجماعات، ومرض خطير، يبتلي به كثير من البشر، وتمارسه بعض الأحزاب والجماعات، وظهر هذا المرض أكثر ما ظهر، في بعض الدول، بحكم تركيبتها البنوية (الشمولية) التي تفرض هذا النوع من السلوك الإضطراري، الذي هو عبارة عن نفق أوله تركيب تربوي عاطل، ونهايته دكتاتورية تطحن الأخضر واليابس.

وليس هدف هذا المقال، شرح معاني الدكتاتورية، والتسلط الفردي، وعشق الذات، وحب السيطرة، ولا بيان آثار هذا المرض على الفرد والجماعة والدولة، ولا يتطرق إلى كل الأسباب التي تؤدي لانتشار هذا الوباء المر، والطامة المريرة، فهذه المعاني لها غير هذا المقال الموجز.

ولكنني في هذا المقال، سوف أبسط القول، في سبب من أسباب انتشار هذه المصيبة في حياة الناس.

ولا أشك لحظة واحدة، أن من أكبر أسباب شيوع هذه الظاهرة، غياب معاني التناصح، وقوله الحق، والأمر بالمعروف،

والنهي عن المنكر، لذا عبر عن هذا الأمر نبينا - صلى الله عليه وسلم - بالجزء عن الكل لبيان أهمية، هذا الجزء، حيث قال: الدين النصيحة) ويا له من تعبير دقيق يحمل في طياته، كثيراً من معاني معالجة مثل هذا المنكر الكبير الذي نحن بصدده البحث عن واحدة من معاني أسبابه.

ذلك أن المرأة بطبيعته يحب من يثنى عليه، ويحسن عمله، ويمدح نتاجه، ويبارك جهده، وتنتشي نفس الإنسان وتتنعش، في حال الإطراء عليها، خصوصاً إذا كانت النفس مريضة، أو أن صاحبها يعيش عقدة نقص، لعامل من عوامل الحدوث والبروز لمثل هذه أشياء.

وبالمقابل فإن المرأة لا يحب من ينقده، ويقلل من شأنه، وينقص من جده، وهذا في الغالب الأعم، لا يستثنى من هذا إلا من جاهد نفسه، حق جهادها، وأعطتها ما تستحق من تربية، وتهذيب، وتزكية، ودرية ومران على المعاني التي تجعله يقبل النقد بصدر رحب، ويسمع النصيحة، بنفس طيبة،

ويفتح قلبه لمن يوجهه، ويدله على عيوبه، ورضي الله عن سيدنا عمر، الذي رفع شعار (رحم الله امرأً أهدى إلى عيوبه). وهذه إشكالية ضارة أعمقها، في تاريخ الإنسان، عميقها في داخل النفس البشرية، وتعقيداتها في مجالات واسعة معاني الخلل، بين التنسية والتراكبة،

وهي قضية بحثها العلماء بحثاً دقيقاً واسعاً، حتى إن أحد المفكرين الإسلاميين من المعاصرین، جعل هذا قانون النشوء والنهوض للحضارات، من خلال عمق الدلالة التي تكون في طيات هذا المعنى، وبالمقابل معالج الدمار والزوال، وعوامل السقوط والضياع، في الوجه الآخر للحقيقة.

ونتج عن هذا أن زالت دول، وتحطم ممالك، وتفجرت ثورات، وبدأت أمم، وأريقت دماء حتى الركب، وكسرت رؤوس، وضاعت أجيال، وقتل أطفال ويتموا، وترملت نساء، وحدث ما تقشعر منه الأبدان، ويشيب لهوله الولدان، ويجعل الحليم حيران.

وما فرعون، سوى نموذج من نماذج الصدق على هذه الحقيقة المرة، وصورة من صوره المؤلمات الناتجة عن هذه المسألة، وبقيت ظاهرته تنسحب على كل زمان ومكان، وإلى اليوم، فيقال عن واحد من الناس: هذا فرعون هذه الأمة. وما أكثر النماذج في هذا الشأن الجارح، في القديم والحديث.

ومن أسباب، بروز مرض الدكتاتورية والتسلط وحب الذات، عدم وجود لغة التناصح، فالنصيحة مطلوبة، وهي تصحيح للمسار، وتقويم للعوج، وفائتها تعود على الفرد والمجتمع والأمة، وهي في صالح المنصوح أولًا، لو كان يعقل، وتجرد عن رعونات نفسه. ذلك أن هذا التسلط، بحكم استغرقه بنشوته المهلكة، في كثير من الأحيان لم يعد يرى سوى محارب الذات، اتخذه معيناً، فهذا يحتاج إلى من يذكره، أو يحتاج - على تعبير بعض الساسة - إلى من يوجه له صدمة حكيمة، حتى يصحوا من سكرته، ويفيق من غفلته، من هنا تجد العامة، يرددون المثل الشعبي السائر) يا فرعون مين فرعونك، قال ما شفت حدا يربني)، وفي هذا دلالة كثير من المعاني التي نريد.

دخل علي عزت، رئيس البوسنة والهرسك، يوم الجمعة - وجاء متاخراً - فقام الناس له، وفسحوا له حتى جعلوه في الصف الأول، فالتفت إليهم قائلاً: هكذا تصنعن طواوغينكم.

نعم الأمة صنعت كثيراً من الطواوغيت، بما صفت ومدحت وأثنت، وغيبت قانون النصح، وبيان العيب (المعارضة الصالحة).

ومصيبة عدم سماع النصيحة، تصيب أول ما تصيب ذلك الذي لم يسمع النصح، وإن كانت تأتي عليه، وعلى غيره، فالسلكوت على العيوب، وعدم قول الحق، كارثة، تکاد لا تستثنى أحداً.

يرى أحدهنا العوج، فلا نقول كلمة نصح، يلاحظ الخطأ فيلوبي عنقه، لا يقول شيئاً، بل رأينا في الأمة، من يصفق للطاغوت،

ومن يغني له، ومن يثني عليه۔ وهو مجرم ظالم دكتاتور۔ سمعنا علماء سوء، يسخرون نصوص الشرع، ويلوون أنفاسها، في صالح خدمة الحاكم المستبد، الدكتاتورية ويل، والأنكى منها من يصنعون الطاغية.

والاليوم مع ثورات الربيع العربي، تتجدد الهمة، في أمة سئمت من حاكمها الدكتاتور، والأنظمة الشمولية، حالة من التجديد تسري في جسم هذه الأمة، لعلها تكون عامل خير في تأصيل معايير الفضل، في جملة من المعاني التي تعمل على تأكيد أن الحاكم، خادم للأمة، ولا خصوصية له تمنع من مسأله، أو جعله فوق القانون.

نريد أن تشيع ثقافة، التناصح، التي تحمي البلاد والعباد، من ورط ما جره التصفيق على أمتنا، من خراب ودمار، وما أحدهه من إهلاك الحرث والنسل، وما نتج عنه من سوء وفساد وضياع.

نريد في يومنا الباسم القادم، حرية تنفس فيها الصعداء، تكون عامل بناء وتصحيح، وسيبدأ من سبل تفتح الأزهار، حتى نعيد من إمكانات الأمة، دون استثناء، فلا تمييز بين أحد، ولا يتقدم إلا من يستطيع حمل الجرة.

على المتولين مفاصل الأمور في سوح النجاح، لنتائج الربيع العربي، أن يحدثوا التجديد، ويعلنوا عملياً عن التغيير، من خلال الممارسة، التي تخالف عفن الدكتاتوريات السابقة، فيشعر الناس أنهم أمام صورة نظيفة، وحالة مطمئنة، وصفحة جديدة.

الناس يبحثون عن التواضع، ويحبون من يكون قريباً منهم، في كل شيء، يعيش همومهم، يجلب لهم المصالح، ويدفع عنهم المفاسد، ويحسون بالأمان معه، هو منهم وإليهم، تصدق له قلوبهم لا أيديهم، ترسم صورة عمله الفاضل في كل زوايا حياتهم، فتحطم الأصنام المصنوعة، والصور المزركشة المعدلة، وتشرق الحياة بالعدل والنصح.

المصدر: مركز أمية للبحوث والدراسات الاستراتيجية

المصادر: